

وإنه على كل شيء شهيد. بدل منه تقديره أولم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد ومعناه أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه، ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد أي مطلع مهيمن يستوي عنده غيبه وشهادته فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق وأنه من عنده ولو لم يكن كذلك لما قوي هذه القوة، ولما نصر حاملوه هذه النصرة.

قُرئ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْ قَوْقِحِهِ ۖ وَالْأَرْضُ كَأَنَّهُ يُصْحَرُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝﴾.

قُرئ: ﴿تَكَادُ﴾ بالتاء والياء وينفطرن ويتفطرن وروى يونس عن أبي عمر، وقراءة غريبة تتفطرن بتاءين مع النون ونظيرها حرف نادر روى في نوادر ابن الأعرابي الإبل تشمن ومعناه يكدن ينفطرن من علو شان الله وعظمته يدل عليه مجيئه بعد العلي العظيم وقيل من دعائهم له ولذا كقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ﴾ (2).

فإن قُلْتَ: لم قال من فوقهن؟ قُلْتَ: لأن أعظم الآيات وألها على الجلال والعظمة فوق السموات وهي العرش والكرسي وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى، فلذلك قال: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْ قَوْقِحِهِ﴾ أي يبتدئ الانفطار من جهتهن الفوقانية أو لأن كلمة الكفر جاءت من الذين تحت السموات فكان القياس أن يقال: يتفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة الفوق كأنه قيل: يكدن يتفطرن من الجهة التي فوقهن دع الجهة التي تحتهن ونظيره في المبالغة قوله عزّ وعلا: يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم فجعل الحميم مؤثراً في أجزائهم الباطنة وقيل: من فوقهن من فوق الأرضين.

فإن قُلْتَ: كيف صح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار أعداء الله وقد قال الله تعالى: ﴿أولئك عليهم لعنة الله والملائكة﴾ (3) فكيف يكونون لاعتين مستغفرين لهم؟ قُلْتَ: قوله: ﴿لمن في الأرض﴾ يدل على جنس أهل الأرض وهذه الجنسية قائمة في كلهم وفي بعضهم فيجوز أن يراد به هذا وهذا قد دل اللبيل على أن الملائكة لا يستغفرون إلا لأولياء الله وهم المؤمنون فما أراد الله إلا إياهم ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة المؤمن ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ (4) وحكايتهم عنهم ﴿فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾ (5) كيف وصفوا المستغفر لهم بما يستوجب به الاستغفار فما تركوا للذين لم يتوبوا من المصنّفين طمعاً في استغفارهم فكيف للكفرة ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب اللحم والغفران في قوله تعالى: ﴿إن الله يممسك السموات والأرض أن تزولا﴾، إلى أن قال: ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ (6) وقوله تعالى: ﴿إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ (7) والمراد

وإنه على كل شيء شهيد. بدل منه تقديره أولم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد ومعناه أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه، ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد أي مطلع مهيمن يستوي عنده غيبه وشهادته فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق وأنه من عنده ولو لم يكن كذلك لما قوي هذه القوة، ولما نصر حاملوه هذه النصرة.

أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيبَةٍ مِّنْ لِّعَاقِبَتِهِمْ ۚ آلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ ۝﴾.

وقرئ: ﴿في مرية﴾ بالضم وهي الشك ﴿محيط﴾ عالم بجمل الأشياء وتفصيلها وظواهرها وبواطنها فلا تخفى عليه خافية منهم وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنات» (1).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الشورى مكية

حَدَّثَنَا ① عَسَقَ ②.

قرأ ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما حم سق. كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ بَيْنِكَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالْمُكِيمِ ③ لَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ④.

﴿حملك يوحى إليك﴾ أي مثل ذلك الوحي أو مثل ذلك الكتاب إليك وإلى الرسل ﴿من قبلك الله﴾ يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور وأوحى من قبلك إلى رسله على معنى: أن الله تعالى كرّر هذه المعاني في القرآن في جميع الكتب السماوية لما فيها من التنبيه البليغ واللفظ العظيم لعباده من الأوّلين والآخرين ولم يقل أوحى إليك ولكن على لفظ المضارع ليبدل على أن إحياء مثله عابته، وقرئ: يوحى إليك على البناء للمفعول.

فإن قُلْتَ: فما رافع اسم الله على هذه القراءة قُلْتَ: ما دل عليه يوحى كأن قائلًا قال من الموحى فقيل الله كقراءة السلمى، وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم على البناء للمفعول ورفع شركائهم على معنى زينه لهم شركائهم.

(5) سورة غافر، الآية: 7.
(6) سورة فاطر، الآية: 41.
(7) سورة الشورى، الآية: 5.

(1) نكرة الثعلبي وابن مرويه، الزيلعي 230/3.
(2) سورة مريم، الآية: 90.
(3) سورة البقرة، الآية: 161.
(4) سورة غافر، الآية: 7.

الحلم عنهم وأن لا يعاجلهم بالانتقام فيكون عامًا.

فإن قُلْتُ: قد فسرت قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَطَّرُنَّ﴾ بتفسيرين فما وجه طباق ما بعده لهما؟ قُلْتُ: أما على أحدهما فكانه قيل تكاد السموات يتطفرن هيبة من جلاله واحتشامًا من كبريائه والملائكة الذين هم ملء السبع الطبايق وحافون حول العرش صفوفًا بعد صفوف يداومون خضوعًا لعظمته على عبادته وتسبيحه وتحميده ويستغفرون لمن في الأرض خوفًا عليهم من سطواته، وأما على الثاني فكانه قيل يكن يتطفرن من إقدام أهل الشرك على تلك الكلمة الشنعاء والملائكة يوحنون الله وينزهونه عما لا يجوز عليه من الصفات التي يضيفها إليه الجاهلون به حامنين له على ما أولاهم من الطافة التي علم أنهم عندها يستصمون مختارين غير ملجنين ويستغفرون لمؤمني أهل الأرض الذين تبرؤوا من تلك الكلمة ومن أهلها أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب مع وجود ذلك فيهم لما عرفوا في ذلك من المصالح وحرصًا على نجات الخلق وطمعًا في توبة الكفار والفساق منهم.

وَأَلَّيْنِ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴿ جعلوا له شركاء وأنادًا ﴾ الله حفيظ عليهم ﴿ رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء، وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم لا رقيب عليهم إلا هو وحده ﴿وما أنت﴾ يا محمد بموكل بهم ولا مفوض إليك أمرهم ولا قسرمهم على الإيمان إنما أنت منذر فحسب.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُبَيِّنَ لِمَنْ هُوَ قَرِيْبٌ وَنُنزِّلَ الْقرآنَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٧﴾

ومثل ذلك ﴿أوحينا إليك﴾، وذلك إشارة إلى معنى الآية قبلها من أن الله تعالى هو الرقيب عليهم وما أنت برقيب عليهم ولكن نذير لهم لأن هذا المعنى كرهه الله في كتابه في مواضع جمّة والكاف مفعول به لأوحينا و﴿قرآنًا عربيًّا﴾ حال من المفعول به أي أوحيناه إليك وهو قرآن عربي بين لابس فيه عليك لتفهم ما يقال لك ولا تتجاوز حد الإنذار، ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر أوحينا أي ومثل ذلك الإيحاء البين المفهوم أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا بلسانك ﴿لتنذر﴾ يقال: أنذرته كذا وأنذرت به كذا وقد عدى الأوّل أعني ﴿لتنذر أم القرى﴾ إلى المفعول الأوّل والثاني، وهو قوله وتندر يوم الجمع إلى المفعول الثاني ﴿أم القرى﴾ أهل أم القرى كقوله تعالى: ﴿واسئل القرية﴾ ﴿ومن حولها﴾ من العرب، وقرى ﴿لينذر بالياء والفعل

للقرآن ﴿يوم الجمع﴾ يوم القيامة لأن الخلائق تجمع فيه قال الله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾^(١) وقيل: يجمع بين الأرواح والأجساد وقيل: يجمع بين كل عامل وعمله ولا ريب فيه ﴿اعتراض لا محل له، قرى﴾ فريق وفريق بالرفع والنصب فالرفع على من فريقتهم وفريق وفريق والضمير للمجموعين لأن المعنى: يوم جمع الخلائق والنصب على الحال منهم أي متفرقين كقوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾^(٢).

فإن قُلْتُ: كيف يكونون مجموعين متفرقين في حالة واحدة؟ قُلْتُ: هم مجموعون في ذلك اليوم مع افتراقهم في داري البؤس والنعيم كما يجتمع الناس يوم الجمعة متفرقين في مسجدين، وإن أريد بالجمع جمعهم في الموقف فالتفرق على معنى مشارفتهم للتفرق.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَةٍ وَأَلْطَمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وِليٍّ وَلَا نصيرٍ ﴿٨﴾

﴿لجعلهم أمة واحدة﴾ أي مؤمنين كلهم على القسر والإكراه كقوله تعالى: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ وقوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾^(٣) والدليل على أن المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان قوله: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿أفأنت تكره﴾^(٥) بإلخال همزة الإنكار على المكره دون فعله دليل على أن الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره والمعنى: ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعاً على الإيمان، ولكنه شاء مشيئة حكمة فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بمن يشاء الا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين ويترك الظالمين بغير ولي ولا نصير في عذابه.

أَرَأَيْتَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ دُونِهِ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ مِنْ مَوْلَى وَهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَوِيْرٌ ﴿٩﴾

معنى الهمزة في ﴿أم﴾ الإنكار ﴿فأله هو الولي﴾ هو الذي يجب أن يتولى وحده ويعتقد أنه المولى والسيد فالفاء في قوله: ﴿فأله هو الولي﴾ جواب شرط مقدر كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه إن أرادوا ولياً بحق فأله هو الولي بالحق لا ولي سواه ﴿وهو يحيي﴾ أي ومن شأن هذا الولي انه يحيي ﴿الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ فهو الحقيق بان يتخذ ولياً دون من لا يقدر على شيء.

وَمَا أَخْلَقْنَاهُ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فُحْكَمَةٌ لِي إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

(4) سورة يونس، الآية: 99.

(5) سورة يونس، الآية: 99.

(1) سورة التغابن، الآية: 9.

(2) سورة الروم، الآية: 14.

(3) سورة يونس، الآية: 99.

قصودوا المبالغة في ذلك، فسلخوا به طريق الكناية لأنهم إذا نفوه عن يسد مسدّه وعمن هو على أخص أوصافه، فقد نفوه عنه ونظيره قولك للعربي: العرب لا تخفر الذم كان أبلغ من قولك: أنت لا تخفر ومنه قولهم قد أيفعت لذاته وبلغت أترابه يريون إيفاعه وبلوغه وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته⁽⁴⁾ والقصد إلى طهارته وطيبه فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله ليس كالله شيء وبين قوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾⁽⁵⁾ إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها وكانها عبارتان معتقتان على معنى واحد: وهو نفي المماثلة عن ذاته.

لَمْ مَلَأِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِسَطِّ الرَّزْقِ لَمَنْ يَسَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾.

ونحوه قوله عز وجل: ﴿بل يدها مبسوطتان﴾⁽⁶⁾ فإن معناه: بل هو جواد من غير تصور يد ولا بسط لها لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون شيئاً آخر حتى أنهم استعملوها فيمن لا يد له فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل له ولك أن تزعم أن كلمة التشبيه كزرت للتأكيد كما كزرها من قال: وصاليات ككما يؤثفين ومن قال، فاصبحت مثل كعصف مأكول، وقرئ: ويقدر ﴿إنه بكل شيء عليم﴾ فإذا علم أن الغنى خير للعبد أغناه وإلا أفقره.

﴿سَخَّ لَكُمْ مِنَ الَّذِينَ مَاتَ وَصَنَ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿شرح لكم من الدين﴾ بين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ والمراد إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه ويوم الجزاء وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلماً ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها فإنها مختلفة متفاوتة قال الله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾⁽⁷⁾ ومحل أن أقيموا إما نصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه، وإما رفع على الاستئناف كأنه قيل وما ذلك المشروع فقيل هي إقامة الدين ونحوه قوله: تعلق أن هذه أمتكم أمة واحدة ﴿كبر على المشركين﴾ عظم عليهم وشق عليهم ﴿ما تدعوهم إليه﴾ من إقامة دين الله والتوحيد ﴿يجتبي

﴿وما اختلفتم فيه من شيء﴾ حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين أي ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين، فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله تعالى، وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين ﴿ذلك﴾ الحاكم بينكم هو ﴿الله ربي عليه توكلت﴾ في رد كيد أعداء الدين ﴿ولإليه﴾ أرجع في كفاية شرهم وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره كقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فربوه إلي والرسول﴾⁽¹⁾ وقيل: وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله ﷺ وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا الله أعلم كعرفة الروح قال الله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾⁽²⁾.

فإن قلت: هل يجوز حمله على اختلاف المجتهدين في أحكام الشريعة؟ قلت: لا، لأن الاجتهاد لا يجوز بحضرة رسول الله ﷺ.

فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَمَلٌ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٣﴾.

﴿فاطر السموات﴾ قرئ بالرفع والجر فالرفع على أنه أحد أخبار نلكم أو خبر مبتدأ محذوف والجر على، فحكمه إلى الله فاطر السموات وتلك إلى أنيب اعتراض بين الصفة والموصوف ﴿جعل لكم﴾ خلق لكم ﴿من أنفسكم﴾ من جنسكم من الناس ﴿أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً﴾ أي وخلق من الأنعام أزواجاً ومعناه وخلق للأنعام أيضاً من أنفسها أزواجاً ﴿يذروكم﴾ يكثركم يقال ذرأ الله الخلق بثهم وكثرهم والذرو والذرء والذرة أخوات ﴿فيه﴾ في هذا التدبير وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل والضمير في يذروكم يرجع إلى المخاطبين والأنعام مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل، وهي من الأحكام ذات العلنيين.

فإن قلت: ما معنى يذروكم في هذا التدبير وهلا قيل يذروكم به! قلت: جعل هذا التدبير كالماتبع والمعدن للبيث والتكثير إلا تراك تقول للحبوان في خلق الأزواج تكثير كما قال تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾⁽³⁾ قالوا: مثلك لا يبخل فنقوا البخل عن مثله وهم يريون نفيه عن ذاته

(5) سورة الشورى، الآية: 11.

(6) سورة المائدة، الآية: 64.

(7) سورة المائدة، الآية: 48.

(1) سورة النساء، الآية: 59.

(2) سورة الإسراء، الآية: 85.

(3) سورة البقرة، الآية: 179.

(4) رواه الطبراني في معجمه.

فإن قُلْتُمْ: كيف حوجزوا وقد فعل بهم بعد ذلك ما فعل من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء؟ قُلْتُمْ: المراد محاجرتهم في مواقف المقابلة لا المقتلة.

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٧﴾.

﴿يحاجون في الله﴾ يخاصمون في دينه ﴿من بعد﴾ ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام ليرتدوا إلى دين الجاهلية كقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرْتَدُّوا عَنْ يَدَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَرًا﴾⁽⁴⁾ كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين كتاباً قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالحق وقيل من بعد ما استجاب الله لرسوله ونصره يوم بدر وأظهر دين الإسلام ﴿داحضة﴾ باطلا زالة.

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْبَيِّنَاتِ وَمَا يُدْرِكُ لَمَلَّ السَّاعَةِ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾.

﴿أنزل الكتاب﴾ أي جنس الكتاب ﴿والميزان﴾ والعدل والتسوية، ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله في كتبه المنزلة وقيل الذي يوزن به، بالحق ملتبساً بالحق مقترناً به بعيداً من الباطل أو بالغرض الصحيح كما اقتضته الحكمة أو بالواجب من التحليل والتحرير وغير ذلك ﴿الساعة﴾ في تأويل البعث فلنلك قيل ﴿قريب﴾ أو لعل مجيء الساعة قريب.

فإن قُلْتُمْ: كيف يوفق نكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟ قُلْتُمْ: لأن الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط فكانه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجتكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم ويوفي لمن أوفى ويظف لمن ظف.

يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارِضُونَ فِي السَّاعَةِ لَيُكَلِّمُنَا عِبَادٌ ﴿١٨﴾.

الممارسة الملاجة لأن كل واحد منهما يمرى ما عند صاحبه ﴿لفي ضلال بعيد﴾ من الحق لأن قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله ولدلالة الكتاب المعجز على أنها آتية لا ريب فيها ولشهادة العقول على أنه لا بد من دار الجزاء.

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ. يُرِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾.

﴿لطيف بعباده﴾ بر بليغ البر بهم قد توصل بره إلى جميعهم وتوصل من كل واحد منهم إلى حيث لا يبلغه وهم أحد من كلياته وجزئياته.

إليه﴾ يجتلب إليه ويجمع والضمير للدين بالتوفيق والتسديد ﴿من يشاء﴾ من ينفع فيهم توفيقه، ويجري عليهم لطفه.

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَلَاءُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كِمَّةٌ سَقَّتْ مِنَ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُصِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَيَنْ شَكَّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٩﴾.

﴿وما تفرقوا﴾ يعني أهل الكتاب بعد أنبياءهم ﴿إلا من بعد﴾ أن علموا أن الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه على السنة الأنبياء ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ وهي عدة التأخير إلى يوم القيامة ﴿لفضي بينهم﴾ حين افترقوا لعظم ما افترقوا ﴿وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم﴾ وهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ ﴿لفي شك﴾ من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان وقيل كان الناس أمة واحدة مؤمنين بعد أن أهلك الله أهل الأرض أجمعين بالطوفان، فلما مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم وذلك حين بعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم، وإنما اختلفوا للبغي بينهم وقيل وما تفرق أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث رسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾⁽¹⁾ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم هم المشركون أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل وقرى ورتوا وورثوا.

يَذَلِّكَ فَادَعُ وَاسْتَحِمْ كَمَا أُرْتَبَ وَلَا تَبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدَلُ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْتَابٌ وَلَكُمْ أَعْتَابٌ لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٩﴾.

﴿فلنلك﴾ فلأجل التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً ﴿فادع﴾ إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية القديمة ﴿واستقم﴾ عليها على الدعوة إليها كما أمر الله ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ المختلفة الباطلة بما أنزل الله من كتاب أي كتاب صح أن الله أنزله يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة لأن المتفرقين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض كقوله تعالى: ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾⁽²⁾ إلى قوله: ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾⁽³⁾ ﴿لأعدل بينكم﴾ في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إلي ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ أي لا خصومة لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به فلا حاجة إلى المحاجة ومعناه: لا إيراد حجة بيننا لأن المتحاجين يورد هذا حجته وهذا حجته ﴿الله يجمع بيننا﴾ يوم القيامة فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم وهذه محاجة ومتاركة بعد ظهور الحق وقيام الحجة والإلزام.

(3) سورة النساء، الآية: 151.

(1) سورة البينة، الآية: 4.

(4) سورة البقرة، الآية: 109.

(2) سورة النساء، الآية: 150.

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ رَافِعُ يَهُدَىٰ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ
رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿١٦﴾

﴿تري الظالمين﴾ في الآخرة ﴿مشفقين﴾ خائفين
خوفًا شديدًا أرق قلوبهم ﴿مما كسبوا﴾ من السيئات
﴿وهو واقع بهم﴾ يريد وباله واقع بهم وواصل إليهم
لا بد لهم منه اشفقوا أو لم يشفقوا، كان روضة جنة
المؤمن أطيب بقعة فيها وانزهها ﴿عند ربهم﴾ منصوب
بالظرف لا بيشاؤون.

ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِمْ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَعْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٧﴾

قري: ﴿يبشر﴾ من بشره ويبشر من أبشره ويبشر
من بشره والأصل تلك الثواب الذي يبشر الله به عباده
فحنف الجار كقوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾⁽¹⁾ ثم
حنف الراجع إلى الموصول كقوله تعالى: ﴿هَذَا الَّذِي
بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾⁽²⁾ أو تلك التبشير الذي يبشره الله عباده،
روي أنه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم
لبعض: أترون محمدًا يسأل على ما يتعاطاه أجرًا فنزلت
الآية ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ يجوز أن يكون استثناء
متصلًا أي: لا أسالكم أجرًا إلا هذا، وهو أن تودوا أهل
قرباتي ولم يكن هذا أجرًا في الحقيقة؛ لأن قرباتهم،
فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة ويجوز أن يكون
منقطعًا أي: لا أسالكم أجرًا قط ولكنني أسالكم أن تودوا
قرباتي الذين هم قرباتكم ولا تؤنؤهم.

فإن قلت: هلا قيل إلا مودة القربى أو إلا المودة للقربى،
ومعنى قوله: إلا المودة في القربى؛ قلت: جعلوا مكانًا للمودة
ومقرًا لها كقولك لي: في آل فلان مودة ولى فيهم هوى
وحب شديد تريد أحبيهم وهم مكان حبي ومحله، وليست في
بصلة للمودة كالللام إذا قلت إلا المودة للقربى إنما هي
متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك المال في الكيس،
وتقديره إلا المودة ثابتة في القربى وتمتكنة فيها والقربى
مصدر كالزلفى والبشرى بمعنى قرابة، والمراد في أهل
القربى وروى أنها لما نزلت قيل: يا رسول الله من قرباتك
هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم قال: علي وفاطمة
وابناهما⁽³⁾، ويدل عليه ما روي عن علي رضي الله عنه
شكوت إلى رسول الله ﷺ حسد الناس لي فقال: أما ترضى
أن تكون رابع أربعة أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن
والحسين وأزواجنا عن إيماننا وشمائنا وذريتنا خلف
أزواجنا⁽⁴⁾، وعن النبي ﷺ حرمت الجنة على من ظلم أهل

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿يرزق من يشاء﴾ بعد
توصل بره إلا أن البر أصناف وله أوصاف والقسمة بين العباد
تفاوتت على حسب تفاوت قضايا الحكمة والتبدير فيطير
لبعض العباد صنف من البر لم يطر مثله لآخر ويصيب هذا
حظ له وصف ليس ذلك الوصف لحظ صاحبه فمن قسم له
منهم ما لا يقسم للآخر فقد رزقه وهو الذي أراد بقوله
تعالى: ﴿يرزق من يشاء﴾ كما يرزق أحد الأخوين ولذا نون
الآخر على أنه أصابه بنعمة أخرى لم يرزقها صاحب الولد
﴿وهو القوي﴾ الباهر القدرة الغالب على كل شيء
﴿العزیز﴾ المنيع الذي لا يغلب.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ
حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿١٨﴾

سمى ما يعمله العامل مما يبغى به الفائدة والزكاء حرثًا
على المجاز، وفرق بين عملي العاملين بأن من عمل
للآخرة وفق في عمله وضوعفت حسناته ومن كان عمله
للدنيا أعطى شيئًا منها لا ما يريده ويبتغيه، وهو رزقه
الذي قسم له وفرغ منه وما له نصيب قط في الآخرة،
ولم ينكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب
على أن رزقه المقسوم له واصل إليه لا محالة
للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصده من زكاء عمله
وفوزه في المآب.

أَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ
وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِّبَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿١٩﴾

معنى الهمزة في ﴿أم﴾ التقرير والتقريع، وشركاؤهم
شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وإنكار البعث والعمل
للدنيا لأنهم لا يعلمون غيرها وهو الدين الذي شرعت لهم
الشياطين، وتعالى الله عن الإذن فيه، والأمر به وقيل:
شركاؤهم أوثانهم، وإنما أضيفت إليهم لأنهم متخونها
شركاء لله فتارة تضاف إليهم لهذه الملايسة، وتارة إلى الله
ولما كانت سببًا لضلالتهم وافتتانهم جعلت شارعة لنين
الكفر كما قال إبراهيم صلوات الله عليه: إنهن أضللن كثيرًا
من الناس ﴿ولولا كلمة الفصل﴾ أي: القضاء السابق
بتأجيل الجزاء أي: ولولا العدة بأن الفصل يكون يوم
القيامة ﴿لقضى بينهم﴾ أي: بين الكافرين والمؤمنين أو
بين المشركين وشركائهم، وقرأ مسلم بن جندب وأن
الظالمين بالفتح عطفًا له على كلمة الفصل يعني ولولا كلمة
الفصل وتقدير تعذيب الظالمين في الآخرة لقضى بينهم
في الدنيا.

(1) = المودة في القربى (الحديث رقم: 4818).

(4) رواه الطبراني في معجمه.

(1) سورة البقرة، الآية: 245.

(2) سورة الانبياء، الآية: 18.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الشورى، باب: إلا =

بيتى وأذاني في عترتي ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب، ولم يجازيه عليها فإنا أجازيه عليها غداً إذا لقيني يوم القيامة⁽¹⁾ وروى أن الأنصار قالوا فعلنا وفعلنا كأنهم افتخروا فقال عباس أو ابن عباس رضي الله عنهما: لنا الفضل عليكم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاتاهم في مجالسهم فقال: يا معشر الأنصار ألم تكونوا أئمة فاعزكم الله بي قالوا: بلى يا رسول الله قال: ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي قالوا: بلى يا رسول الله قال: أفلا تجيبونني قالوا: ما نقول يا رسول الله، قال: ألا تقولون ألم يخرجكم قومك فأوينك أو لم يكذبوك فصدقناك أو لم يخذلوك فنصرتناك قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله⁽²⁾ فنزلت الآية وقال رسول الله ﷺ: من مات على حب آل محمد مات شهيداً إلا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له إلا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً إلا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة، ثم منكر ونكير إلا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها إلا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة إلا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة إلا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، إلا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله إلا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً إلا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة، وقيل: لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله ﷺ وبينهم قربي، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه نزلت⁽³⁾ والمعنى: إلا أن تونوني في القربي أي في حق القربي ومن أجلها كما تقول الحب في الله والبغض في الله بمعنى: في حقه ومن أجله يعني أنكم قومي وأحق من أجباني وأطاعني فإذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربي، ولا تؤذوني ولا تهيجوا عليّ وقيل: أتت الأنصار رسول الله ﷺ بمال جموعه وقالوا يا رسول الله: قد هदानا الله بك وأنت ابن أختنا وتعروك نواثب وحقوق ومالك سعة فاستعن بهذا على ما ينوبك فنزلت⁽⁴⁾ ورده وقيل: القربي التقرب إلى الله تعالى أي: إلا أن تحبوا الله ورسوله في تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح، وقرئ: إلا المودة في القربي **﴿ومن يقترف حسنة﴾** عن السدي أنها المودة في آل رسول الله ﷺ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومودته فيهم والظاهر العموم في أي حسنة كانت إلا أنها لما ذكرت عقب نكر المودة في القربي دل ذلك على أنها تناولت

آم بَرُولُونَ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَيِّنَاتِ وَيُحْمِلُ وَيُؤْتِي لَمَقًا يَكَلِّمُ مَن يَشَاءُ اللَّهُ بِحَسْنِ إِدْرَاقِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٧﴾.

﴿أم﴾ منقطعة ومعنى الهمزة فيه التوبيخ كأنه قيل: يتملكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء، ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم الفرى وأحشها **﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾**، فإن يشأ الله يجعل من المختوم على قلوبهم حتى تفترى عليه الكذب فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم، وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله وأنه في البعد مثل الشرك بالله، والسخول في جملة المختوم على قلوبهم ومثال هذا أن يخون بعض الأمانة فيقول لعل الله خذلني لعل الله أعمى قلبي وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب، وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله والتنبيه على أنه ركب من تخونه أمر عظيم، ثم قال: ومن عادة الله أن يحمو الباطل ويثبت الحق **﴿بكلماته﴾** بوجه أو بقضائه كقوله تعالى: **﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾**⁽⁵⁾ يعني: لو كان مفترياً كما تزعمون لكشف الله افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه ويجوز أن يكون عدة لرسول الله ﷺ بأنه يحمو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مرد له من نصرتك عليهم إن الله عليهم بما في صدرك وصورهم فيجري الأمر على حسب ذلك، وعن قتادة يختم على قلبك ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي يعني: لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك، وقيل: يختم على قلبك يربط عليه بالصبر حتى لا يشق عليك أذاهم.

﴿فإن قلت﴾ إن كان قوله: **﴿ويمح الله الباطل﴾** كلاماً مبتدأ غير معطوف على يختم فما بال الواو ساقطة في الخط **﴿قلت﴾** كما سقطت في قوله تعالى: **﴿ويدع الإنسان بالشرك﴾**⁽⁷⁾ وقوله تعالى: **﴿سندع الزبانية﴾**⁽⁸⁾ على أنها مثبتة في بعض المصاحف يقال قبلت منه الشيء وقبلته عنه، فمعنى قبلته منه: أخذته منه وجعلته مبداً قبولى ومنشأه ومعنى قبلته عنه: عزلته عنه وأبنته عنه.

(5) سورة البقرة، الآية: 245.

(6) سورة الأنبياء، الآية: 18.

(7) سورة الإسراء، الآية: 11.

(8) سورة العلق، الآية: 18.

(1) نكره الثعلبي في تفسيره.

(2) رواه الطبري في تفسيره، ورواه الطبراني في معجمه الأوسط، وابن أبي حاتم في تفسيره، الزيلعي 237/3.

(3) نكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 238/3.

(4) قال الزيلعي غريب 239/3، ونكره الواحد في أسباب النزول

الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو فيها والفساد وقيل: نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى قال خباب بن الأرت: فينا نزلت وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها **﴿بقدر﴾** بتقدير يقال: قدره قدرًا وقدرًا **﴿خبير بصير﴾** يعرف ما يؤل إليه أحوالهم فيقدر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم، فيفقر ويفني ويمنع ويعطي ويقبض ويبسط كما توجيه الحكمة الربانية ولو أغناهم جميعًا لبغوا ولو أفرهم لهلكوا.

فإن قلت: قد نرى الناس يبغي بعضهم على بعض ومنهم مبسوط لهم ومنهم مقبوض عنهم، فإن كان المبسوط لهم يبغون فلم بسط لهم؟ فإن كان المقبوض عنهم يبغون فقد يكون البغي بدون البسط فلم شرطه؟ **قلت:** لا شبهة في أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه فلو عم البسط لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن.

وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْعَيْنَ مِنْ بَدَمٍ مَا فَتَطُورًا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ
الَّذِي الْحَمِيدُ (١٨).

قري: **﴿قنطوا﴾** بفتح النون وكسرها **﴿وينشر رحمته﴾** أي: بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب، وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له: اشتد القحط وقنط الناس فقال: مطروا إذا (2) أراد هذه الآية ويجوز أن يريد رحمته في كل شيء كأنه قال: ينزل الرحمة التي هي الغيث وينشر غيرها من رحمته الواسعة **﴿الولي﴾** الذي يتولى عباده بإحسانه **﴿الحميد﴾** المحمود على ذلك يحمده أهل طاعته.

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ
عَلَىٰ جَمِيعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (١٩).

﴿وما بث﴾ يجوز أن يكون مرفوعًا ومجرورًا يحمل على المضاف إليه والمضاف.

فإن قلت: لم جاز **﴿فيهما من دابة﴾** والدواب في الأرض وحدها **﴿قلت:** يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المنكور وإن كان ملتبسًا ببعضه كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد أو شجاع بطل، وإنما هو في فخذ من أفضالهم أو فصيلة من فصائلهم وبنو فلان فعلوا كذا، وإنما فعله نوبس منهم ومنه قوله تعالى: **﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾** وإنما يخرج من الملح (3) ويجوز أن

وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْتَزُّ بِعَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا
تَكْفُرُونَ (٢٠).

والتوبة أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لا يعاود؛ لأن المرجوع عنه قبيح وإخلال بالواجب، وإن كان فيه لعبد حق لم يكن بد من التفصي على طريقه وروى جابر أن أعرابيًا دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: اللهم إني استغفرك وأتوب إليك وكبر، فلما فرغ من صلاته قال له علي رضي الله عنه: يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك تحتاج إلى التوبة فقال يا أمير المؤمنين: وما التوبة قال: اسم يقع على ستة معان على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة ورد المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية وإذابة النفس مرارة الطاعة كما انقبتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته **﴿ويعفو عن السيئات﴾** عن الكبائر إذا تيب عنها وعن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، ويعلم ما يفعلون قرئ بالياء والياء أي: يعلمه فيثيب على حسناته ويعاقب على سيئاته.

وَيَدْعِبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢١).

﴿ويستجيب الذين آمنوا﴾ أي يستجب لهم فحذف اللام كما حذف في قوله تعالى: **﴿وإذا كالوهم﴾** أي: يثيبهم على طاعتهم ويزيدهم على الثواب تفضلاً أو إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم وقيل الاستجابة فعلهم أي: يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها **﴿ويزيدهم﴾** هو **﴿من فضله﴾** على ثوابهم وعن سعيد بن جبير هذا من فعلهم يجيبونه إذا دعاهم، وعن إبراهيم بن آدم أنه قيل له: ما بالنا ندعو فلا نجاب قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه، ثم قرأ والله يدعو إلى دار السلام ويستجيب الذين آمنوا.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُزِيلُ يُزِيلُ
مَا يَشَاءُ إِنََّّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٢).

﴿لبغوا﴾ من البغي وهو الظلم أي لبغي هذا على ذلك وذلك على هذا؛ لأن الغنى مبطرة مباشرة وكفى بحال قارون عبرة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها ولبعض العرب (1)، وقد جعل الوسمي يثبت بيننا، وبين بني رومان نبغاً وشوحطاً يعني: أنهم أحيوا فحذثوا أنفسهم بالبغي والتفتان، أو من البغي وهو البذخ والكبر أي لتكبروا في

(3) قال أحمد: إطلاق الدواب على الأناسي بعيد من عرف اللغة، فكيف في إطلاقه على الملائكة، والصواب والله أعلم هو الوجه الأول.

وقد جاء مفسراً في غير ما آية، كقوله: **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾**، ثم قال: **﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل﴾**

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على اليتامى، (الحديث: 1465).

وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، الحديث: (121 - 1052).

(2) رواه عبد الرزاق في تفسيره، ونكره الثعلبي، الزيلعي: 240/3.

﴿بمعجزين﴾ بفائتين ما قضى عليكم من المصائب
﴿من ولي﴾ من متول بالرحمة.

وَمِنْ آيَاتِهِ الْمَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَانِ ﴿٣٢﴾

الجوار: السفن، وقرئ: ﴿الجوار﴾ ﴿كالاعلام﴾ كالجبال
قالت الخنساء: كأنه علم في رأسه نار.

إِنْ يَأْتِ بِتَأْتِيكَ الرِّيحُ فَظَلِّلَنَّ رَوَاكِدَ عَنْ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

وقرئ: ﴿الرياح فيظللن﴾ بفتح اللام وكسرها من ظل
يظل ويظل نحو ضل يضل ويضلل ﴿رواكد﴾ ثوابت
لا تجري ﴿على ظهره﴾ على ظهر البحر ﴿لكل﴾
صبار ﴿على بلاء الله﴾ شكور ﴿لنعماته﴾ وهما صفتا
المؤمن المخلص فجعلهما كناية عنه وهو الذي وكل همته
بالنظر في آيات الله فهو يستملي منها العبر.

أَوْ يُؤَيِّنَنَّ يَمًا كَسْبًا وَيَعْفَ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾

﴿يؤيقهن﴾ يهلكهن، والمعنى أنه: إن يشأ يبطل
المسافرين في البحر بإحدى بليتين أما أن يسكن الريح
فيركد الجوارى على متن البحر ويمنعهن من الجري وإما
أن يرسل الريح عاصفة فيهلكن إغراقاً، بسبب ما كسبوا
من الذنوب ﴿ويعف عن كثير﴾ منها.

فإن قلت: علام عطف ﴿يؤيقهن﴾! قلت: على يسكن
لأن المعنى إن يشأ يسكن الريح فيركدن أو يعصفها
فيغرقن بعصفها.

فإن قلت: فما معنى إخال العفو في حكم الإيباق حيث
جزم جزمه؟ قلت: معناه، أو إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً
على طريق العفو عنهم.

فإن قلت: فمن قرأ ويعفو قلت: قد استأنف الكلام.

وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِجْبٍ ﴿٣٥﴾

فإن قلت: فما وجوه القرآت الثلاث في ﴿ويعلم﴾ قلت:

1 = البهائم والأطفال والمجانين، فقال: لا أعراض لها وليس مترتباً
على استحقاق سابق فيحسن، فإنما يتم إلزامه بموافقته له على
أن لا أعراض لها.

(2) لم آقف عليه عند البيهقي في الشعب ولا عند عبد الرزاق.

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الحدود، باب: الحد كفارة، (الحديث:
2604).

وأخرجه أحمد في المسند: 214/5.

وأخرجه الحاكم في المستدرک: 445/2.

(4) قال أحمد: وهم يقولون: إن الريح لم ترد في القرآن إلا عذاباً
بخلاف الرياح، وهذه الآية تخرم الإطلاق، فإنَّ الريح المنكورة هنا
نعمة ورحمة إذ بواسطتها يسير الله السفن في البحر حتى لو
سكنت لركبت السفن، ولا ينكر أن الغالب من ورودها مفردة ما
نكرهه، وأما أطرادها فلا. وما ورد في الحديث: «اللهم اجعلها رياحاً
ولا تجعلها ريحاً»، فإلحاق الغالب في الإطلاق، والله أعلم.

يكون للملائكة عليهم السلام مشى مع الطيران، فيوصفوا
بالدبيب كما يوصف به الأناسي ولا يبعد أن يخلق في السموات
حيواناً يمشي فيها مشى الأناسي على الأرض سبحان الذي
خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق، إذا يدخل على
المضارع كما يدخل على الماضي قال الله تعالى: ﴿والليل إذا
يغشى﴾ ومنه ﴿إذا يشاء﴾ وقال الشاعر:

وإذا ما أشاء أبعث منها - آخر الليل ناشطاً مذعوراً
وما أصحك من مبيكة فيما كتبت أيديكم ويعفوا عن كثير
﴿٣٠﴾

في مصاحف أهل العراق ﴿فيما كسبت﴾ بإثبات الفاء
على تضمين ما معنى الشرط وفي مصاحف أهل المدينة
بما كسبت بغير فاء على أن ما مبتدأة وبما كسبت خبرها
من غير تضمين معنى الشرط الآية مخصوصة
بالمجرمين⁽¹⁾، ولا يمتنع أن يستوفي الله بعض عقاب
المجرم ويعفو عن بعض فأما من لا جرم له كالأنبياء
والأطفال والمجانين فهؤلاء إذا أصابهم شيء من ألم أو
غيره فللعوض الموفى والمصلحة وعن النبي ﷺ ما من
اختلاج عرق ولا خدش عود، ولا نكبة حجر إلا بنبت ولما
يعفو الله عنه أكثر⁽²⁾ وعن بعضهم من لم يعلم أن ما
وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه وأن ما عفا عنه
مولاه أكثر كان قليل النظر في إحسان ربه إليه وعنه آخر
العبد ملازم للجنايات في كل أوان وجناياته في طاعاته أكثر
من جناياته في معاصيه؛ لأنَّ جناية المعصية من وجه
وجناية الطاعة من وجوه والله يطهر عبده من جناياته
بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله في القيامة ولولا
عفوه ورحمته لهلك في أول خطوة، وعن علي رضي الله
عنه وقد رفعه من عفي عنه في الدنيا عفي عنه في الآخرة
ومن عوقب في الدنيا لم تثن عليه العقوبة في الآخرة⁽³⁾،
وعنه رضي الله عنه هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن.

وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِينَ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا
نَصِيرٍ ﴿٣٦﴾

دابة، فخص هذا الأمر بالأرض، والله أعلم.

(1) قال أحمد: هذه الآية تنكسر عندها القنرية، ولا يمكنهم ترويح
حيلة في صرفها عن مقتضى نصها، فإنهم حملوا قوله تعالى:
﴿ويغفر ما نون ذلك لمن يشاء﴾ على التائب وهو غير ممكن لهم
ههنا، فإنه قد أثبت التبعض في العفو، ومحال عندهم أن يكون
العفو هنا مقروناً بالتوبة، فإنه يلزم تبعض التوبة أيضاً، وهي
عندهم لا تبعض، وكذلك نقل الإمام عن أبي هاشم وهو رأس
الاعتزال، ﴿والذي تولى كبره منهم﴾، فلا محمل لها إلا الحق
الذي لا مرية فيه، وهو مرد العفو إلى مشيئة الله تعالى غير
موقوف على التوبة، وقول الزمخشري: إنَّ الآلام التي تصيب
الأطفال والمجانين لها أعراض إنما يريد به وجوب العوض على
الله تعالى على سياق معتقده، وقد أخطأ على الأصل والفرع؛ لأنَّ
المعتزلة وإن أخطأت في إيجاب العوض، فلم تقل بليجابه في
الأطفال والمجانين، الا ترى أنَّ القاضي أبا بكر الزمهم قبح إبلام =

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٨﴾

﴿والذين استجابوا لربهم﴾ نزلت في الأنصار دعاهم الله عز وجل للإيمان به وطاعته فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعوه ﴿واقاموا الصلوة﴾ وأتموا الصلوات الخمس، وكانوا قبل الإسلام وقبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة إذا كان بهم أمر اجتمعوا وتشاوروا فأنشئ الله عليهم أي: لا ينفرون برأي حتى يجتمعوا عليه، وعن الحسن ما تشاور قوم إلا هتوا لأرشد أمرهم⁽³⁾، والشورى مصدر كالتفتيا بمعنى التشاور ومعنى قوله: ﴿وامرهم شورى بينهم﴾ أي: نو شورى وكذلك قولهم: ترك رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة شورى.

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنصِرُونَ ﴿٢٩﴾

هو أن يقتصروا في الانتصار على ما جعله الله لهم ولا يعتدوا، وعن النخعي أنه كان إذا قرأها قال: كانوا يكرهون أن يئلبوا أنفسهم فجتري عليهم الفساق.

فإن قلت: أهم محمودون على الانتصار قلت: نعم لأن من أخذ حقه غير متعدد حد الله وما أمر به فلم يسرف في القتل إن كان ولي دم أورد على سفيه محاماة على عرضه وردعاً له فهو مطيع وكل مطيع محمود.

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾

كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء من تنزل به قال الله تعالى: ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عنك﴾⁽⁴⁾ يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا والمعنى: أنه يجب إذا قولت الإساءة أن تقابل بمثلاً من غير زيادة فإذا قال: أذراك الله قال أذراك الله ﴿فمن عفا وأصلح﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء كما قال تعالى: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾⁽⁵⁾ ﴿فأجره على الله﴾ عدة مبهمة لا يقاس أمرها في العظم وقوله: ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه⁽⁶⁾ تجاوز السيئة والاعتداء خصوصاً في حال الحرد والتهاب الحمية فربما كان المجازي من الظالمين وهو لا يشعر، وعن النبي ﷺ إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم قال: فيقوم خلق فيقال لهم ما أجركم على الله، فيقولون نحن الذين عفونا عنمن ظلمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة بإذن الله⁽⁷⁾.

أما الجزم فعلى ظاهر العطف وأما الرفع فعلى الاستئناف وأما النصب فللعطف على تعليل محنوف تقديره لينتقم منهم ﴿ويعلم الذين يجاللون﴾ ونحوه في العطف على التعليل المحنوف غير عزيز في القرآن منه قوله تعالى: ﴿ولنجعله آية للناس﴾⁽¹⁾ وقوله تعالى: ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت﴾⁽²⁾ وأما قول الزجاج: النصب على إضمار أن لأن قبلها جزء تقول ما تصنع أصنع مثله وأكرمك وإن شئت وأكرمك على وأنا أكرمك وإن شئت وأكرمك جزماً ففيه نظر لما أورده سيبويه في كتابه قال: وأعلم أن النصب بالفاء والواو في قوله: إن تأنني أنك وأعطيك ضعيف وهو نحو من قوله والحق بالحق فاستترحا فهذا يجوز، وليس بحد الكلام ولا وجهه إلا أنه في الجزء صار أقوى قليلاً؛ لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أن يكون من الأول فعل، فلما ضارع الذي لا يوجبه كالأستفهام، ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه اهـ ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحد الكلام ولا وجهه ولو كانت من هذا الباب لما أخلى سيبويه منها كتابه وقد نكر نظائرها من الآيات المشكلة.

فإن قلت: فكيف يصح المعنى على جزم ويعلم؟ قلت: كأنه قال وإن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين ﴿من محيص﴾ من محيد عن عقابه.

مَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَخُذُوهُ وَالْحَيْوَةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣١﴾

ما الأولى ضمنت معنى الشرط فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية، عن علي رضي الله عنه اجتمع لأبي بكر رضي الله عنه مال فتصدق به كله في سبيل الله والخير فلأمله المسلمون وخطاه الكافرون فنزلت.

وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ كِبَرَهُمُ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٢﴾

﴿والذين يختفون﴾ عطف على الذين آمنوا وكذلك ما بعده ومعنى ﴿كباثر الإثم﴾ الكباثر من هذا الجنس، وقرئ كبير الإثم، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه كبير الإثم هو الشرك ﴿هم يغفرون﴾ أي: هم الإحصاء بالغفران في حال الغضب لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس والمجيء بهم وإيقاعه مبتدأ وإسناد يغفرون إليه لهذه الفائدة ومثله هم ينتصرون.

(6) قال أحمد: معنى حسن يجاب به عن قول القائل لم نكر هذا عقب العفو، مع أن الانتصار ليس بظلم فيشقى غليل السائل، ويحصل منه على كل طائل.

(7) رواه أبو نعيم في الحلية: 53/8، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في حسن الخلق فصل في ترك الغضب، الحديث: 8313.

(1) سورة مريم، الآية: 21.

(2) سورة الجاثية، الآية: 22.

(3) أخرجه البخاري في الأب المفرد: 358/1، باب: المشورة، (حديث: 258).

(4) سورة النساء، الآية: 78.

(5) سورة فصلت، الآية: 34.

وَلَكِنْ أَنْصَرَ بَدَّ عَلَيَّهِ فَأَرْثُكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾.

﴿بعد ظلمه﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول وتفسره قراءة من قرأ بعد ما ظلم ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى معنى من دون لفظه ﴿ما عليهم من سبيل﴾ للمعاقب، ولا للعائب والعائب.

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُورَثُوا لَهُمْ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾.

﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس﴾ يبتدئونهم بالظلم ﴿ويبغون في الأرض﴾ يتكبرون فيها ويعلمون ويفسون.

وَلَكِنْ سَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْرِ الْأُمُورِ ﴿١٣﴾.

﴿ولمن صبر﴾ على الظلم والأذى ﴿ووغفر﴾ ولم ينتصر وفوض أمره إلى الله ﴿إن تلك﴾ منه ﴿لمن عزم الأمور﴾ وحذف الراجع لأنه مفهوم كما حذف من قولهم السمن منوان بدرهم، ويحكى أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية فقال: الحسن عقلها والله وفهمها إذ ضيعها جاهلون، وقالوا: العفو مندوب إليه، ثم الأمر قد ينعكس في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوباً إليه وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي وقطع مادة الأذى، وعن النبي ﷺ ما يدل عليه وهو أن زينب أسمعت عائشة بحضرتها وكان ينهاها فلا تنتهي فقال لعائشة: نونك فانتصري⁽¹⁾.

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَهْدٍ مِنْ بَدْوٍ وَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿١٤﴾.

﴿ومن يضل الله﴾ ومن يخذل الله ﴿فما له من ولي من بعده﴾ فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه.

وَرَنَّهُمْ يَمْرُسُونَ عَلَيْهَا حَيْثُمِ مِنْ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ حَيْثُ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْغَنَابَةَ الَّذِينَ خَيْرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿١٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أُولِيَاءَ يَصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٦﴾.

﴿خاشعين﴾ متضائلين متقاصرين مما يلحقهم ﴿من الدل﴾ وقد يعلق من الدل بينظرون ويوقف على خاشعين ﴿بينظرون من طرف خفي﴾ أي يبتدئ نظرم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة كما ترى المصبور ينظر إلى السيف، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملا عينيه منها كما يفعل في نظره إلى

المحاب، وقيل: يحشرون عمياً فلا ينظرون إلا بقلوبهم وذلك نظر من طرف خفي وفيه تعسف ﴿يوم القيامة﴾ إما أن يتعلق بخسر أو يكون قول المؤمنين: واقعاً في الدنيا وإما أن يتعلق بقال أي يقولون يوم القيامة إذا رآوهم على تلك الصفة.

أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَكٍ يُؤَيِّدُ وَوَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿١٧﴾.

﴿من الله﴾ من صلة لا مرد أي: لا يرده الله بعدما حكم به، أو من صلة يأتي أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده، والنكير الإنكار أي: مالكم من مخلص من العذاب ولا تقدر أن تنكروا شيئاً مما افترقتموه وبون في صحائف أعمالكم.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيَّكَ إِلَّا الْبَلَاءُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَسَبَهُ إِذًا وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيْئَةً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿١٨﴾.

أراد بالإنسان الجمع لا الواحد لقوله: ﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ ولم يرد إلا المجرمين لأن إصابته السيئة بما قدمت أيديهم إنما تستقيم فيهم. والرحمة النعمة من الصحة والغنى والأمن، والسيئة البلاء من المرض والفقر والمخاوف، والكفور البليغ الكفران ولم يقل، فإنه كفور ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم كما قال: ﴿إن الإنسان لظلم كفار﴾ ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ والمعنى أنه يذكر البلاء وينسى النعم⁽²⁾ ويغمطها.

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِن تَشَاءُ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿١٩﴾.

لما نكر إناقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدّها اتبع ذلك أن له الملك، وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد ويهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته فيخص بعضاً بالإنثا وبعضاً بالذكور وبعضاً بالصفين جميعاً ويعقم آخرين فلا يهب لهم ولداً قط.

فَإِنْ قُلْتَ: لم تقدم الإنثا أولاً على الذكور مع تقدمهم عليهم، ثم رجح فقدهم ولم عرف الذكور بعد ما نكر الإنثا؟ قلت: لأنه نكر البلاء في آخر الآية الأولى وكفران الإنسان بنسيانته الرحمة السابقة عنده، ثم عقبه بنكر ملكه ومشيتته ونكر قسمة الأولاد، فقدم الإنثا لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان، فكان نكر الإنثا اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم والأهم واجب التقديم ولبلي الجنس الذي كانت العرب تعدّه بلاء نكر

(1) أخرجه أحمد في المسند: 93/6.

= فوضع الظالمين موضع الضمير الذي كان من حقه أن يعود على اسم إن فيقال: إلا إنهم في عذاب مقيم، فأتى هذا الظاهر تسجيلاً عليهم بلسان ظلمهم.

(2) قال أحمد: وقد أغفل هذه النكتة بعينها في الآية التي قبل هذه، وهي قوله تعالى: ﴿وقال الذين آمنوا أن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ =

الحال لأن أن يرسل في معنى إرسال ومن وراء حجاب ظرف واقع موقع الحال أيضاً كقوله تعالى: ﴿وعلى جنوبهم﴾⁽¹⁾ والتقدير وما صح أن يكلم أحداً إلا موحياً أو مسمعاً من وراء حجاب أو مرسلأ ويجوز أن يكون موحياً موضوعاً موضع كلاماً لأن الوحي كلام خفي في سرعة كما تقول: لا اكلمه إلا جهراً وإلا خفياً لأن الجهر والخفات ضربان من الكلام، وكذلك إرسالاً جعل الكلام على لسان الرسول بمنزلة الكلام بغير واسطة تقول قلت لفلان كذا، وإنما قاله وكليك أو رسولك، وقوله: أو من وراء حجاب معناه أو إسماعاً من وراء حجاب ومن جعل وحيًا في معنى أن يوحى وعطف يرسل عليه على معنى: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أي: إلا بأن يوحى أو بأن يرسل فعليه أن يقدر قوله أو من وراء حجاب تقديرًا يطابقهما عليه نحو أو أن يسمع من وراء حجاب، وقرئ أو يرسل رسولاً فيوحي بالرفع على أو هو يرسل أو بمعنى مرسلأ عطفًا على وحيًا في معنى موحياً، وروي أن اليهود قالت للنبي ﷺ: ألا تكلم الله وتتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه فلما لن تؤمن لك حتى تفعل ذلك فقال: لم ينظر موسى إلى الله فنزلت⁽²⁾ وعن عائشة رضي الله عنها من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، ثم قالت: أو لم تسمعوا ربكم يقول فتلت هذه الآية ﴿إنه علي﴾⁽³⁾ عن صفات المخلوقين ﴿حكيم﴾ يجري أفعاله على موجب الحكمة فيكلم تارة بواسطة وأخرى بغير واسطة إما إلهاماً وإما خطاباً.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُؤْيَا مِمَّا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكَيْتِبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ، مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾

﴿روحا من امرنا﴾ يريد ما أوحى إليه لأن الخلق يحيون به في دينهم كما يحي الجسد بالروح.

فَإِن قُلْتَ: قد علم أن رسول الله ﷺ ما كان يدري ما القرآن قبل نزوله عليه⁽⁴⁾ فما معنى قوله: ﴿ولا الإيمان﴾ والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا، وتمكنوا من النظر

البلاء وأخّر النكور، فلما أخرجهم لذلك تدارك تأخيرهم وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم؛ لأن التعريف تنويه وتشهير كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المنكوريين الذين لا يخفون عليكم.

أَوْ رَزَوْنَهُمْ ذَكَرْنَا وَإِنَّا وَمَجْمَلٌ مِّن بَيِّنَاتٍ عَمِيماً إِنَّهُمْ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٣﴾

ثم أعطى بعد ذلك لا الجنسين حقه من التقديم والتأخير وعرف أن تقديمهم لم يكن لتقدمهم، ولكن لمقتض آخر فقال: ﴿نكراناً وإناتاً﴾ كما قال: إنا خلقناكم من نكر وأنثى فجعل منه الرزجين الذكر والأنثى، وقيل: نزلت في الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه حيث وهب لشعيب ولوط إناتاً وإبراهيم نكور ولمحمد نكوراً وإناتاً، وجعل يحيى وعيسى عقيمين ﴿إنه عليهم﴾ بمصالح العباد ﴿قدير﴾ على تكوين ما يصلحهم.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بآيَاتِهِ، مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ ﴿٥٤﴾

﴿وما كان لبشر﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿أن يكلمه الله إلا﴾ على ثلاثة أوجه إما على طريق الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب، أو المنام كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في نبح ولده، وعن مجاهد أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره قال عبيد بن الأبرص:

وأوحى إلي الله أن قد تأسروا ببلبل أبي أوفى ففتمت على رجل

أي الهمني وقذف في قلبي وإما على أن يسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه لأنه في ذاته غير مرئي، وقوله: ﴿من وراء حجاب﴾ مثل أي: كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب فيسمع صوته ولا يرى شخصه وذلك كما كلم موسى، ويكلم الملائكة وأما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة، فيوحي الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى وقيل: وحيًا كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة ﴿أو يرسل رسولاً﴾ أي نبياً كما كلم أمم الأنبياء على السننهم ووحياً وإن يرسل مصدران واقعان موقع

(1) سورة آل عمران، الآية: 191.

(2) لم يخرج الزليعي.

(3) تقدم في سورة الأحزاب.

(4) قال أحمد: لما كان معتقد الزمخشري: أن الإيمان اسم التصديق مضافاً إليه كثير من الطاعات فعلاً وتركاً، حتى لا يتناول الموحد العاصي ولو بكبيرة واحدة اسم الإيمان، ولا يناله وعد المؤمنين، وتطفن لإمكان الاستدلال على صحة معتقده بهذه الآية عدداً فرصة لينتهزها، وغنيمة ليحرزها، وأبعد الظن بإرادة مذهب أهل السنة على صورة السؤال لجيب عنه بمقتضى معتقده، فكانه يقول: لو كان الإيمان وهو مجرد التوحيد والتصديق، كما تقول أهل السنة لزم أن ينفي عن النبي عليه الصلاة والسلام قبل المبعث بهذه الآية كونه مصدقاً، ولما كان التصديق ثابتاً للنبي عليه الصلاة والسلام قبل المبعث باتفاق الفريقين، لزم أن لا يكون =

= الإيمان المنفي في الآية عبارة عما اتفق على ثبوته، وحينئذ يتعين صرفه إلى مجموع أشياء من جملتها التصديق، ومن جملتها كثير من الطاعات التي لم تعلم إلا بالوحي، وحينئذ يستقيم نفيه قبل المبعث، وهذا الذي طمع فيه يخرب القناد ولا يبلغ منه ما أراد، وذلك أن أهل السنة وإن قالوا: أن الإيمان هو التصديق خاصة حتى يتصف به كل موحد، وإن كان فاسقاً يخصون التصديق بالله وبرسوله، فالنبي عليه الصلاة والسلام مخاطب في الإيمان بالتصديق برسالة نفسه، كما أن أمته مخاطبون بتصديقه ولا شك أنه قبل الوحي لم يكن يعلم أنه رسول الله، وما علم ذلك إلا بالوحي، وإذا كان الإيمان عند أهل السنة هو التصديق بالله وبرسوله، ولم يكن هذا المجموع ثابتاً قبل الوحي، بل كان الثابت هو التصديق بالله تعالى خاصة استقام نفي الإيمان قبل الوحي على هذه الطريقة الواضحة، والله أعلم.

وقرئ أم الكتاب بالكسر وهو اللوح كقوله تعالى: ﴿بِئْسَ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾⁽⁴⁾ سُمي بأم الكتاب لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب منه تنقل وتستنسخ، على رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزاً من بينها ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة أي: منزلته عند منزلة كتابهما صفاته وهو مثبت في أم الكتاب هكذا.

أَفَنضِرُبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾.

﴿أَفَنضِرُبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ بمعنى أفنحى عنكم الذكر ونذوده عنكم على سبيل المجاز من قولهم ضرب الغرائب عن الحوض ومنه قول الحجاج: ولاضربنكم ضرب غرائب الإبل وقال طرفة:

اضرب عنك الهموم طارقتها ضربك بالسيف قونس الفرس
والفاء للعطف على محذوف تقديره انهملكم فنضرب
عنكم الذكر إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قدم من
إنزاله الكتاب وخلقته قرآنًا عربيًا ليعقلوه ويعملوا بمواجهه،
وصفحاً على وجهين أما مصدره من صفح عنه إذا عرض
منتصب على أنه مفعول له علي معنى: أفنحى عنكم إنزال
القرآن، وللزام الحجة به إعرافاً عنكم وإما بمعنى: الجانب
من قولهم نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه على معنى
أفنحى عنكم جانباً فينتصب على الطرف كما تقول: ضعه
جانباً وامش جانباً وتعضده قراءة من قرأ صفحاً بالضم
وفي هذه القراءة وجه آخر وهو أن يكون تخفيف صفح
جمع صفوف، وينتصب على الحال أي: صافحين معرضين
﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أي لأن كنتم وقرئ أن كنتم وإذ كنتم.

فإن قُلْتُ: كيف استقام معنى إن الشرطية وقد كانوا
مسرفين على البت؟ قُلْتُ: هو من الشرط الذي نكرت أنه
يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته كما يقول
الأجير: إن كنت عملت لك فوفني حقي وهو عالم بذلك
ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق
فعل من له شك في الاستحقاق مع وضوحه استجلالاً له.

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾ حكاية خال ماضيه مستمرة أي: كانوا
على ذلك، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه.

فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَنَحْنُ مُّكَلِّمُونَ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾.

الضمير في ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ للقوم المسرفين لأنه صرف
الخطاب عنهم إلى رسول الله ﷺ يخبره عنهم ﴿ومضى

والاستدلال أن يخطبهم الإيمان بالله وتوحيده، ويجب أن
يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصفائر التي
فيها تنفير قبل المبعث وبعده، فكيف لا يعصمون من
الكفر؟ قُلْتُ: الإيمان اسم يتناول أشياء بعضها الطريق إليه
العقل وبعضها الطريق إليه السمع، فعنى به ما الطريق إليه
السمع نون العقل وذلك ما كان له فيه علم حتى كسبه
بالوحي الا ترى أنه قد فسر الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَمَا
كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾⁽¹⁾ بالصلاة لأنها بعض ما يتناوله
الإيمان ﴿وَمَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ من له لطف ومن لا لطف
له فلا هداية تجدي عليه.

صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ
تَسِيرُ الْأُمُورِ ﴿٩﴾.

﴿صراط الله﴾ بدل، وقرئ لتهدى أي: يهديك الله وقرئ
لتدعوا عن رسول الله ﷺ من قرأ حم عسق كان ممن
تصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له⁽²⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزخرف مكية

حَمْدٌ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْأَمِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾.

اقسم بالكتاب المبين وهو القرآن.
وجعل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ جواباً
للقسم⁽³⁾ وهو من الأيمان الحسنة البينة لتناسب القسم
والمقسم عليه وكونهما من واحد ونظيره قول أبي
تمام: وثناياك إنها إغريض ﴿المبين﴾ البين للذين أنزل
عليهم لأنه بلغتهم وأساليبهم وقيل: الواضح للمتدبرين
وقيل: المبين الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة وأبان
ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة ﴿جعلناه﴾ بمعنى:
صيرناه معدى إلى مفعولين أو بمعنى: خلقناه معدى إلى
واحد كقوله تعالى: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ و﴿قرآنًا
عربيًّا﴾ حال، ولعل مستعار لمعنى الإرادة لتلاحظ معناها
ومعنى الترجي أي: خلقناه عربيًا غير عجمي إرادة أن
تعقله العرب وثلاثا يقولوا لولا فصلت آياته.

وَأَنْتُمْ فِي أَرْكَانٍ كُنُوزٍ لَذِيَّا لَعَلَّكُمْ تَحْكُمُونَ ﴿٤﴾.

(1) سورة البقرة، الآية: 143.

(2) ذكره الثعلبي، وابن مردويه في التفسير، الزيلعي: 246/3.

(3) قال أحمد: تنبيه حسن جداً ووجه التناسب فيه أنه أقسم بالقرآن،
وإنما يقسم بعظيم، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن بأنه قرآن
عربي مرجو به أن يعقل به العالمون، أي: يتعقلوا آيات الله تعالى،
فكان جواب القسم مصححاً للقسم، وكذلك أقسم أبو تمام بالثنايا، =

= وإنما يقسم الشعراء بمثل هذه الأشعار بأنه في غاية الحسن ثم
جعل المقسم عليه كونها في نهاية الحسن لا أنها هي إغريض،
وهو من أحسن تشبيهات الثنايا، فجعل المقسم عليه مصححاً
للقسم، والله أعلم.

(4) سورة البروج، الآيتان: 21 - 22.